



أمجد سعيد

علاقة الدين المسيحي بالفنون

حيثما وجد الإنسان وجدت فنونه، ومن هذا المنطلق يعتبر الفن أحد تجليات الحضارات الموهلة في القدم، وكان هذا واضحاً جداً في حضارات مصر والشرق الأدنى واليونان وغيرها. ومع مرور الزمن وتغير المسارات الدينية للأمم لازال الإنسان مع هذه الظروف صامداً متمسكاً بالفنون الخاصة به والتي تلبى متطلباته الروحية والدينية والحياتية. حاتم الطحاوي عرض لنا علاقة جميلة بين الدين المسيحي والفن في مقاله الأنيق بمجلة التسامح والذي عنوانه بـ (المسيحية والفن في العصر الوسيط بين المنظور الديني والتطور التاريخي).

بدأ في تأصيل فن مسيحي لا تشوبه أيًا من علامات الوثنية الموجودة في الفن اليوناني كما أنه قام أيضاً بمسيرة المتغيرات الاجتماعية والثقافية للشعوب ذات الأصول الحضارية الضاربة في القدم. وبدأ أيضاً في الموازنة بين الحياة الدينية والاجتماعية.

ومن المعروف أن التماثيل التي تجسد البشر كانت من أهم تجليات الفنون عبر عصورها الوثنية ولهذا كان من الطبيعي للمسيحية أن تقوم ولعدة قرون بنحت تماثيل مجسدة وخاصة للشخصيات المقدسة فقد كان للمسيحية مفهوماً ومتطلباتها. فقد رأى آباء الكنيسة الأوائل أن الأرواح الشريرة تسكن تلك التماثيل وهكذا حاول الفنان المسيحي الأول السير على خطى الكنيسة والابتعاد عن الفن المسيحي الوثني. انطلاقاً أيضاً من إحدى الوصايا العشر التي تحرم تجسيد الصور الفائرة بالإضافة إلى تجنب قواعد فن نحت التماثيل الكلاسيكية التي برعت في تجسيد الأعضاء الجسدية للرجال والنساء بشكل واضح فضلاً عن مسألة نحت التماثيل عارية تفضح مفاتن الجسد.

لقد تشدد المسيحيون الأوائل في تلك التماثيل التي عدوها وثنية وقاموا بتدمير بعضها بالفعل. وعلى الرغم من ذلك كله فقد وجدت بعض التماثيل التي تعود إلى القرنين الثالث والرابع، ولاشك أن من قام بصيغها قد تأثر بالمقاييس الفنية اليونانية. والمثير أن بعض تلك التماثيل لازال موجوداً حتى الآن أولهما تمثال السيد المسيح على هيئة راع يعود للقرن الرابع الميلادي وموجود حالياً في متحف اللاتيران في روما، والثاني عبارة عن تمثال يمثل النبي يونان وهو يخرج من بطن الحوت من القرن الثالث الميلادي، وهو موجود الآن في كليفلاند في الولايات المتحدة. ولهذا كان من الطبيعي أن يتبع الفنان المسيحي تعليمات الكتاب المقدس الذي فاضت آياته بتحريم صنع التماثيل.

ارتكزت على النزعة الأفلاطونية السابقة التي وجهت الاهتمام نحو الجمال الروحي بدلاً من الجسدي. إن مسألة التقرب إلى الرب كانت الغاية الأساسية من الفن المسيحي الباكر الذي ولد في نفس الوقت من رحم الفن الكلاسيكي. ولهذا فإن بدايات الفن المسيحي كانت دينية بحتة عبر بعض الصور والتماثيل القليلة التي تحدث عنها مؤرخ الكنيسة الأولى يوسابيوس القيساري والذي تحدث عن انطباع صورة المسيح على المنديل. حيث يذكر عن أبقاريوس ملك مدينة الرها بأنه طلب من المسيح أن يشفيه من مرضه الذي لا شفاء له فأرسل له المسيح منديله بعد أن مسح به على وجهه فطبعت صورته عليه وقام الملك بمسح وجهه بمنديل المسيح فبرئ من مرضه في الحال.

ولا يمكن إغفال نماذج أخرى فضلاً عن ذلك الحواري لوقا الذي كان طبيباً ورساماً في الوقت نفسه حيث يقوم برسم جسد الإنسان وعظامه ربما لأهداف تشريحية بطبيعة الحال. غير أن لوقا قام فيما بعد برسم العديد من الصور للسيدة العذراء وأخرى للكأس الذي اتخذه المسيح للعشاء الأخير يحمل على جداره صورة للمسيح والحواريين. بل إنه توجد صورة على جدران الدير السيرياني في مصر تمثل السيدة العذراء تحمل السيد المسيح ومشابهة تماماً لتلك التي رسمها الحواري لوقا سابقاً.

وفي الوقت نفسه، لم يستطع الفن المسيحي الجديد أن يبتعد عن النظرية السياسية الرومانية التي استمرت في إجلال شخص الإمبراطور على الرغم من اعتناقه المسيحية وانضوائه تحت لواء الكنيسة المسيحية. وتجلّى ذلك فنياً في مفهوم فن البورتريه الذي خلد ذكر الأباطرة الأوائل.

وبشكل عام انطلق الفن المسيحي بشكل واضح في القرن الرابع الميلادي مختلطاً ببعض روافد الفن الكلاسيكي غير أنه في بداية القرن السادس الميلادي

عندما بلغت المسيحية أشدها بدأت بالانتشار في أرجاء القارة الأوروبية حيث تم الاعتراف بها كدين رسمي في القرن الرابع من قبل الإمبراطور قسطنطين العظيم بيد أنها لم تواجه ديانات سماوية وثنية قديمة اعتنقها الشعب الروماني والشعوب الخاضعة لها بل واجهت أيضاً تجليات تلك الفترة من الناحية الفنية، ويكفي أن نذكر أن الرومان ورثوا الحضارة اليونانية بكافة مظاهرها الفنية والفلسفية. ومن هنا كان على المسيحية الجديدة أن تتعامل مع ذلك الإرث من حيث الأطر والتنظير أيضاً من الجانب المادي. لقد واجه الفن المسيحي في بداية القرون الأولى الكثير من التحديات والعثرات غير أنه منذ القرن الخامس الميلادي وعبر رعاية الإمبراطورية البيزنطية تمكنت من التغلب على هذه التحديات لتشكل لها فناً خاصاً بها لامس مرحلة النضج حين بدأت تفضح قسّمات الفن المسيحي الجديد.

كان من الطبيعي أن تسهم شعوب مصر والشرق الأدنى وبلاد اليونان في بواكير هذا الفن المسيحي. ولنا مثال على تأثيرات المدرسة الفنية بالإسكندرية على الجدران الرومانية، وكذلك ما عرف باسم بورتريهات الفيوم، والتي تصوّر الشخص المسيحي ذا العيون الواسعة في المواجهة وليس على شكل البروفيل الروماني السابق فضلاً عن دخول القباب والعقد دائرة الفن المسيحي وتجلياته في الكنائس والكاتدرائيات.

لقد وجدت الكنيسة الباكورة نفسها في القرن الرابع الميلادي عند مفترق طريقين هما الأخذ بالتقاليد الكلاسيكية في الفن وهو ما استبعدت المضي فيه أولاً، والثاني هو محاولة ملء الفراغ الذي أحدثه انهيار الحضارة الوثنية. فاخترت الطريق الثاني، وسارعت في احتلال تلك المكانة وفرض محدداتها على مقاييس الفن الجديد وذلك عبر إيجاد محاولات توفيقية بينها وبين الفن الوثني بأن أضفت عليه مسحة مسيحية

amjdsaeed01@outlook.com

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ، فاكس : ٩٦٨ ٢٤٦٠٥٧٩٩ +

البريد الإلكتروني : www.altafahom.net - al.tafahom@gmail.com - tasamoh@gmail.com